مجلة الرائد

العدد : ٢٢٠ الموافق في صفر ١٤٢١ هجري ٦/٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : جذور النهضة في العصور الحديثة	بقلم : أ. محمد العبدة

إن أي تقدم عمراني وأي حديث عن النهضة لا بد أن يبدأ بالإنسان ، فهو محور التغيير أو الجزء الأساسي منه ، وأولى الخطوات لتحقيق هذا الغرض هي تحرير الإنسان من أسر الأوهام والخرافات ، وأسر الأغلال التي تقيده وتصده عن التفكير السليم ، ولا بد أن تتاح له الفرصة كي يعرف الحقائق ويعمل بها . هذه البدايات كانت ديدن الحركات الإصلاحية في كل زمان ، وهي سنة الأنبياء عليهم السلام في بعثتهم لأقوامهم . وفي العصور الحديثة من تاريخ المسلمين كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ /١٧٠٣-١٧٩١م) [١] تنطلق من قلب الجزيرة العربية تلبي هذا المطلب ، وهو : الرجوع إلى صفاء الإسلام ، والأخذ به على أوله وأصله ، والرجوع إلى صفاء العقيدة والبعد عن الخرافات والبدع ، التي تشل تفكير الإنسان ، وتجعله خاضعاً لبشر مثله أو خاضعاً حتى للأشياء ، فهذا التوحيد - الذي هو أساس الإسلام وعليه قام - دعا إليه الشيخ لما رأى اندراسه وما ران عليه من ظلمات الجهل . هذا التوحيد " محرر بكل معنى الكلمة ، محرر للإنسان من سلطة الإنسان ، وهو توحيد ذو مضمون نفسي اجتماعي عميق " [٢] . إن سبب ضعف المسلمين وسقوط نفسيتهم ليس له إلا سبب واحد ، هو : ضعف العقيدة وفشو مظاهر الشرك . والتوحيد يعني السمو بالنفس عن الأوثان والأحجار وعبادة العظماء . إن هذه الدعوة تعتبر نقطة مضيئة في تاريخ العالم الإسلامي خلال فترة الجمود " بل إن كل الثورات الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين ضد الغزو الأوروبي ستحمل في طياتها بذرة وهابية " [٣] حسب تعبير جلال كشك . لم تنحصر هذه الدعوة في نجد أو الجزيرة العربية ، فقد وصل تأثيرها إلى المغرب الأقصى وتأثر بها السلطان محمد بن عبد الله سلطان مراكش (١٧٥٧-١٧٩٠م) كما تأثر بها الداعية أحمد بن عرفان الشهيد الذي قاد حركة كبيرة لتأسيس دولة في شمالي غرب الهند .

ومن معاصري هذه الفترة الإمام محمد بن علي الشوكاني [٤] (١١٧٣-١٢٥٠هـ/١٧٦٠-١٨٣٤م) وهو فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، دعا إلى ترك التقليد ، بل حرَّمه وهاجمه هجوماً عنيفاً ، كما هاجم الفساد الإداري المتفشي ، وكتب كتباً كثيرة يدعو فيها إلى العقيدة الصافية وترك مظاهر الشرك . من أشهر كتبه « **نيل الأوطار** » في الفقه و(**إرشاد الفحول**) في أصول الفقه و(**فتح القدير**) في التفسير . كما ظهر في هذا العصر في العراق الآلوسي الكبير شهاب الدين محمود بن عبد

الله (١٢١٧-١٢٧٠هـ/١٨٠٢-١٨٥٤م) وهو مفسر ومحدث وأديب ، سلفي الاعتقاد ، من أشهر كتبه روح المعاني في التفسير ، وتابعه في هذا الإصلاح وبشكل أقوى وأوضح حفيده محمود شكري الآلوسي (١٢٧٣-١٣٤٢هـ/١٨٥٧-١٩٢٤م) وهو مؤرخ وعالم ، له مؤلفات كثيرة من أشهرها (**بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**) و(**فتح المنان**) في الرد على أهل البدع ، وشرح (**مسائل الجاهلية**) للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، كما تصدى للرد على أكبر مشايخ الصوفية في عصره الشيخ يوسف النبهاني . يقول عنه الأستاذ محمد بهجة الأثري : " فكان نهاره كله ، من شروق الشمس إلى غروبها إلا سويعات منه ، مصروفاً في تدريس هذه الثقافة العربية الإسلامية وإتاحتها لقاصديه " [٦] . وفي الشام كان للشيخ جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ/١٨٦٦-١٩١٤م) دور كبير في تحرير الفكر من التقليد الأعمى ومن البدع والخرافات ، ومن أشهر كتبه (**محاسن التأويل**) في التفسير ، و(**دلائل التوحيد**) . يقول الأمير شكيب أرسلان عن مؤلفاته : " وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها أن لا تقدم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم جمال الدين القاسمي " .

فهولاء الأعلام يجمعهم الاتجاه للإصلاح الحقيقي الذي يوحد شخصية الإنسان فلا تكون ممزقة تتجاذبها معبودات شتى ، مع اختلافهم أحياناً في طريقة العرض ، وفي قوة التوجه ، وملاحظة ما حولهم من تدفق الحضارة الغربية . ويجمعهم أيضاً العقلية التي لا تسلم بالصواب المطلق لأي إنسان ، ولا تعترف بالعصمة لأي حاكم أو مسؤول أو فرد غير الأنبياء ، كما أنهم لم يديروا النهضة على سبب واحد ، فالاهتمامات كانت شاملة ؛ الشيخ محمود شكري الآلوسي يرسل بمهمة سياسية من قبل الدولة العثمانية إلى الملك عبد العزيز في نجد ، والشوكاني يهتم بإصلاح القضاء والدولة ، والشيخ القاسمي يكمل كتاب والده عن الصناعات الشامية . وهذه الأسماء التي ذكرناها هي نماذج لأعلام النهضة ، وهناك أسماء لامعة في تجديد اللغة العربية كالمرتضى الزبيدي صاحب كتاب (**تاج العروس**) في شرح القاموس ، وهو دائرة معارف لغوية وفقهية وأدبية . فالنهضة لم تبدأ كما يؤرخ لها الآن ، وكما يدندن الكثير حول تاريخ هذه النهضة ، فالطهطاوي وخير الدين التونسي يريدان مُركّباً من التقدم الأوروبي ، مع تهذيب الأخلاق والاستفادة من الشريعة الإسلامية ، أو ما يسمونه (التقدم الروحي) . فالإهتمام كان لتحديث الدولة للوقوف أمام التيار الأوروبي ، ولم يكن مشروعاً متكاملاً ، بل إن واقع الشيخ الطهطاوي يمثل الالتحاق بمشروع الدولة المنفذ لسياستها ، وسياسة محمد علي باشا كانت تهميش الأزهر ، وتسخير كل الإمكانيات لصالح مركزه الخاص ولصالح العسكر . ولم يستفد الطهطاوي مما

كتبه وأعجب به من الدساتير الغربية (المشروطية) فرجع يقول عن الحاكم : " فليس عليه في فعله مسؤولية لأحد من رعاياه " . وكذلك الذين جاءوا من بعدهم من المفكرين ورجال الإصلاح ، فإن الجدلية الغربية ومفهومها للتقدم والتمدن قد فرضت عليهم ، فكتبوا وفكروا من خلال هذه الجدلية .

ولم تبدأ النهضة من احتلال نابليون لمصر ودخول خيله إلى الأزهر ، كما يحلو لمزوري التاريخ والثقافة ، فهذا الاحتلال كان مقدمة للاحتلال الإنكليزي ودخول المنطقة في دوامة العهد الاستعماري . كان المسلمون على استعداد للترقي والنهوض قبل حملة نابليون ، ولم يكونوا بحاجة للصدمة الحضارية التي حملها معه، فهو " وإن بذر بذرة التحدي إلا أنه لم يقدم لهذه البلدان روح العلم الذي تنهض به " [٧] ، وكيف يقدم روح العلم وإنما جاء لتدميرها ، وقد ارتكب في ثورة القاهرة ١٧٩٨م من القسوة وسفح الدماء ما ارتكب ، ودخلت الخيل الأزهر وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ورموا الكتب والمصاحف على الأرض [٨] . ومن الأدلة على هذا الاستعداد للترقي قبل الغزو النابليوني أن أحد المهاجرين من الأندلس ، ويدعى أحمد بن القاسم والملقب « الشهاب الحجري » غادر إسبانيا عام ١٥٩٨م واستقر في المغرب ، وعمل مترجماً في بلاط السلطان أحمد والسلطان زيدان . اتصل في تونس بأحد كبار العسكريين المهجرين ويدعى الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم ، وكان من الخبراء في المدفعية ، اكتسبها من عمله في الأسطول الإسباني . قام الشهاب الحجري بترجمة كتاب عن المدفعية أعده الرئيس ابن غانم ودعاه باسم : (العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع) ، ولعب هذا الكتاب دوراً في مواجهة المدفعية الإسبانية [٩] ، وشبيه بهذا العمل ما قام به الشيخ محمود قبادو التونسي (١٨١٣-١٨٦١م) حين ترجم كتاب للجنرال (جومني) في التعبئة الحربية ، وتولى الشيخ تهذيب ترجمته وتنقيح لغتها واختيار المصطلحات العربية العلمية ، مع مقدمة طويلة دعا فيها الشيخ إلى الأخذ من الغرب في العلوم الحربية والعلوم الطبيعية ، ولم يكن عند الشيخ عقدة أو مشكلة نفسية في هذا الموضوع ، ولا محاولات للترقيع مع مدنية الغرب . ومع هذا التبسيط في الطرح فإنه أسلم من الطهطاوي وأمثاله الذين رأوا مشكلة في القوانين والحضارة فلجأوا إلى التلفيق ، مثل قولهم : " القوانين الطبيعية عند الغرب هي أصول الفقه عند المسلمين " ، يقول الشيخ قبادو : " فخذ ما أحماه الفهم ودع ما أنماه الوهم ، أما علمت أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولا يبالي أين يجدها " . ويخاطب المسلمين الذين لا يفقهون سنن التقدم : " فقل لأقوام عن سنن الله يعمهون ، وفي تيه اطراح الأسباب يهيمون قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون " [١٠] .

كانت جذور النهضة بادية قبل الحملة الفرنسية ، عندما استطاع علماء الأزهر تشكيل جبهة موحدة من المشايخ الكبار : الشيخ السادات ، وعمر مكرم ، وعبد الله الشرقاوي ، والشيخ البكري ووقفوا أمام ظلم المماليك وأجبروهم التوقيع على وثيقة تتضمن رفع الظلم وإقامة العدل ، كان ذلك عام ١٧٩٤م قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات [١١] . إن اسماً لامعاً كالشيخ الجبرتي الكبير « حسن بن إبراهيم العقيلي (١٦٩٨-١٧٧٤م) » لدليل على أن جذور النهضة كانت قبل ما يؤرخ لها في ثقافتنا المعاصرة . فهذا الشيخ كان فقيهاً حنفياً كبيراً ، وفي سنة ١٧٣١م ولى وجهه شطر العلوم الطبيعية ، فجمع كتبها من كل مكان وقضى في ذلك عشر سنوات ، ثم قرأها حتى ملك ناصية رموزها في الهندسة والفلك والصنائع ، حتى النجارة والحدادة والتجليد والنقش ، وصار بيته زاخراً بكل أداة في الصناعة ، ولجأ إليه مهرة الصناع يستفيدون منه . يقول عنه ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ : " وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك في سنة تسع وخمسين (١٢٥٩هـ/١٧٤٦م) ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم " [١٢] . ورحم الله الجبرتي الكبير ، كان على خلق أهل الإسلام لا يكتم علماً عن أحد .

لم يتح لهذه البدايات الصحيحة أن **تُنمّى وتُطور** وينتقل منها إلى مشروع نهضوي عملي ، يجنب العالم العربي ما وقع فيه من التخبط الفكري والتخلف الحضاري وما يزال . فالذين جاءوا بعد ذلك **شُغلوا** بالجانب النظري والفكر الدفاعي والردود على المستشرقين والمستغربين ، ولجأوا إلى المواقف التسويغية ، كما انشغل بعضهم بالتصدي لجبهات عدة : جبهة الليبراليين والعلمانيين والاشتراكيين . وحديث النهضة يجب ألا يتوقف ، ويحق للمخلصين والعقلاء من هذه الأمة الاجتماع على ما يناسب خصوصيتها .

الهوامش :

(١) ولد ونشأ في بلدة العيينة من إقليم نجد ، وأقام مدة في البصرة والمدينة . استقر في الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى ، انظر : حاضر العالم الإسلامي ٢٦٠/١ .

(٢) فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام : ١٩٢ .

(٣) محمد جلال كشك : السعوديون والحل الإسلامي : ١٠٥ .

(٤) ولد في قرية شوكان ، تعلم في صنعاء وتتلمذ على كبار علمائها ، وفي عام ١٢٠٩هـ تولى القضاء وبقي في هذا المنصب حتى وفاته ، انظر : الأعلام للزركلي ٢٩٨/٦ .

(٥) انظر في ترجمته : الأعلام ١٧٦/٧ .

(٦) نقولا زياده : أعلام العرب المحدثون ١٦٥ .

(٧) شاكر مصطفى : موسوعة دول العالم الإسلامي ٢/ ١٣٢ .

(٨) انظر كتاب : ودخلت الخيل الأزهر لمحمد جلال كشك .

(٩) شاكر مصطفى : موسوعة دول العالم الإسلامي ١٣٤٢/٢ .

(١٠) فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام : ١١٩ .

(١١) محمود محمد شاكر : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ١٢٨ .

(١٢) المصدر السابق ، عن عجائب الآثار للجبرتي : ٣٩٧/١ .